

العنوان في المقامة الجزائرية - دراسة سيميائية لنماذج مختارة-

The Title in Algerian Maqama - A Semiotic Study of Selected Models -

يزيد بودربالة*

المدرسة العليا للأساتذة ورقلة

Bouderbala.yazid@ens-ouargla.dz

تاريخ الإرسال: 2025-06-09

تاريخ القبول: 2026-05-17

ملخص:

شَغَلَ العنوان بال الأدباء والمبدعين، فهو سيد العتبات النصية، وواجهة النص والعلامة الأكثر حساسية وإثارة للانتباه، وبعد أن أيقن كُتَّاب المقامة الجزائرية هذه الحقيقة شُغِلُوا به وحرصوا على تجويده، فأجادوا في اختيار عناوينهم، وهذا أمر طبيعي فالهدف من كتابة المقامة عند عديد الكُتَّاب هو إظهار المقدرة اللغوية والأدبية، وبذلك انطوى العنوان على شعرية وتورية دلالية، كما تضمن بنية تركيبية وصوتية خاصة كونهم عمدوا إلى مجموعة من التقنيات في صياغتهم للعنوان وخرجوا بالكلمة من سياقها المألوف وخرقوا أفق توقع القارئ، وهذا ليس بغريب فكُتَّاب المقامة امتلكوا ناصية اللغة وعُرفوا بظاهرة العدول والانزياح في كتاباتهم، فجاء العنوان مُكثَّفًا وعميقًا، ومارس "محمد بن ميمون الجزائري" و"ابن حمادوش الجزائري" و"أحمد بن ساسي البوني" الإغواء عن الطريق السجع والانسجام الموسيقي، كما عمدوا إلى توضييق العبارات، فمالوا إلى الاختزال والاختصار، لكن هذا الاقتصاد اللغوي والتضييق جعل العناوين مُكثَّفًا وتفيض بالدلالات والمضمرات، وهذا ما يحتاج إلى تفعيل الطاقة النقدية للمتلقي، فالعناوين بَرَّاقة ومُغرية ومستفزة جدا، وهذه العتبة بمثابة مصباح يُنير عتمة النص المقامي، من هنا راهن عليه كُتَّاب المقامة في الجزائر فهو طعم وأداة جذب للمتلقي. وقد اخترنا بعض العناوين التي اعتمدها الكُتَّاب الثلاثة الذين سبق ذكرهم وسنحاول دراستها سيميائيا.

الكلمات المفتاحية: مقامة؛ عنوان؛ شعرية؛ عتبة نصية؛ نماذج مختارة، سيمياء.

Abstract:

The title preoccupied writers and creators, as it is the master of textual thresholds, the interface of the text, the famous and well-known sign, and a source of attention. After the writers of the Algerian Maqama realized this fact, they became preoccupied with it and were keen to improve it (i.e., the title), so they excelled in choosing their titles. This is a natural thing, as the goal of writing the Maqama for many writers is to show ability and literary skill. Thus, the title contained poetry and semantic

* - المؤلف المُراسل.

allusion, as well as a special structural and phonetic quality. They deliberately employed a range of details in crafting their titles, taking words out of context and expanding the reader's understanding. This is not surprising, as maqama writers possessed mastery of language and were known for their profound and uncompromising style. Their titles were thus dense and profound. Muhammad ibn Maymun al-Jaza'iri, Ibn Hammadush al-Jaza'iri, and Ahmad ibn Sasi al-Buni all employed seductive language, employing both rhetorical devices and experimentation. They also adhered to strict phrasing, favoring brevity and conciseness. However, this linguistic economy, though seemingly limited, is imbued with a richness of meaning and implications. This requires effective manipulation of the power of language to facilitate reception. Titles are dazzling, enticing, and highly provocative, thus serving as a gateway to illuminate the maqama text. The maqama writers of Algeria exemplify this; their work is engaging and captivating. We have selected some examples of the structures employed by the three aforementioned writers, who collectively explored this semiotic approach.

Keywords: Maqama; Title ;Poetics; Paratext; Selected Models; semiotic

مقدمة:

يُراهن الأديب دائما على العتبات النصية، فهي محطات جد مهمة، ومن دونها لن تتحقق جودة العمل، ولن ينال النص الأدبي الإعجاب ما لم تحظ عتباته بالقبول، فحسن اختيار العنوان أو عتبة من العتبات قد يكون مدعاة لدراسته وتلقيه، فكم من كتاب قرأناه فقط لأننا أعجبنا بعنوانه، وهذا راجع إلى أنّ المتلقي يأخذ الانطباع الأول من العنوان؛ لذلك يُجودّه الكاتب ويحرص على انتقائه بدقة، خاصة أنّ له وظائف عدّة تغري وتجذب انتباه القارئ وتشوقه وتحفزه لمباشرة النص وفكّ علاماته، وفي المقابل قيمة النص ومنزلته وعلاقته بالمتن جعلت الأدباء يركّزون عليه ويُولونه عنايتهم، فقيمة النص تُؤخذ من واجهته، وبعبارة أدق من ذلك التركيب اللغوي الموجز الذي يُحيلنا إلى العمل لذلك يمكن عدّه مفتاحا ندخل به، كما أنّ فهم النص لن يتحقق إذا قمنا بعزله عن عنوانه، فهذا الأخير أشبه ما يكون ببطاقة هوية ونحن لا يمكن أن نتعرف على من لا هوية له، لذلك لا يمكن أن يُفهم النص الأبتري (يخلو من العنوان) كما أن العنوان كلوحة إشارية من دونها لن تعرف الوجهة، وبعد أن أدرك الأدباء هذه الحقيقة سعوا دائما إلى صياغة عناوين تحقق لنصوصهم مقروئية وذيوعا وانتشارا، ولم يعد هناك أي مجال للاختيارات العشوائية لهذه العتبة الأولى الأولية.

في القرن الرابع للهجرة ظهرت كتابة نثرية جديدة لها مقوماتها وسماتها الخاصة، وهي أدب المقامة، وكتب في هذا النوع لأول مرة كل من "بديع الزمان الهمداني" و"الحريري" وهي كتابة

تتناص وتتقارب مع كتابات مُشابهة لها، لكنها تختلف عنها في كثير من الجوانب الشكلية والمضمونية، وأبرز ما يلفت النظر في مقامات هذه الفترة العنونة؛ إذ دأب أعلام المقامة على عنونة نصوصهم، وهذه من الظواهر البارزة إذ في العصر العباسي والعصور السابقة كانت جُلّ الأعمال الأدبية تخلو من العناوين سواء في الأعمال الشعرية أو النثرية، ومن هنا خرق الهمذاني وغيره (الحريري) أفق توقع القارئ لأول مرة؛ إذ وجد هذا الأخير نفسه أمام عتبة لم يكن متعودا عليها، بل غالبا ما تسند إلى القارئ مهمة عنونة نص من النصوص أي أن وضع العنوان كان من مهام المتلقي لا الكاتب.

وبحكم علاقة التأثير والتأثر بين البلاد المشرقية والمغربية، فقد سار الأدباء في الجزائر على نهج أسلافهم المشاركة، وعارضوا وحاكوا الأنموذج المقامي الهمذاني وصاغوا على منواله عديد النصوص، ومن الكتاب الجزائريين في هذا المضمار "محمد بن ميمون الجزائري" و"ابن حمادوش الجزائري" و"أحمد بن ساسي البوني"، والمطلع على مقاماتهم يلاحظ توظيفهم للعناوين في كل مقامة، وهي عناوين على قدر كبير من الجاذبية، وكذلك على قدر كبير من الشعرية، وكذا مُستفزة، ومُحيرة، ومُربكة للمتلقي، وهذا يُحسب لكتاب المقامة، فلا يمكن أن يحقق العمل الأدبي مقروئية عالية وعنوانه مبتذل؛ لذلك أتت عناوينهم صدامية مربكة تحتاج إلى جهد قرائي كبير، وهذا متوقع، فمن الدوافع التي حدت بالأدباء لكتابة النص المقامي إظهار مقدرتهم اللغوية؛ لذلك من الطبيعي أن تكون العناوين أسرة برّاقة، من هنا سنحاول تقديم دراسة سيميائية لبعض العناوين التي وظفها الكتاب الجزائريون الذين سبق ذكرهم. منطلقين في هذه الدراسة من الإشكالية الآتية:

ما مفهوم المقامة ؟

وما أبرز الظواهر الفنية والأدبية التي تجلّت في عناوينهم ؟

وما الدلالات السيميائية لعناوين المقامات في الجزائر ؟

ويمّ تميزت عناوين مقاماتهم ؟

1- مفاهيم رئيسية:

1.1- المقامة:

لغة: عرّف "ابن منظور" المقامة بقوله: "المقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس"¹ أي أنّ المقامة هي مجلس يضم عدّة أفراد أو ربما أراد بقوله مجلس يأخذون في الاستماع إلى من يُحدّثهم بحديث ما.

اصطلاحاً: هناك عديد التعريفات لأدب المقامة، ومن ذلك ما أورده "فكتور الكك" يقول: "حديث قصير من شطحات الخيال أو دوامة الواقع اليومي في أسلوب مصنوع مسجع، تدور حول بطل أفاق أديب شحاذ يحدث عنه وينشر طويته راوية جوال، قد يلبس جبة البطل أحيانا"² أي أنّ المقامة قصة أو أقصوصة خيالية مُتخيّلة أو حقيقية مستمدة من الواقع المعيش تروي مغامرات شخصية متسولة على لسان راوية، وعادة يعتمد كاتب النص المقامي على راو ثابت يحتجب خلفه، ويسرد تفاصيل حكيه على لسانه مع ميله إلى الإكثار من الزخرف اللفظي، إذ يُولي كُتّاب المقامة عناية كبيرة للشكل أو للمبنى حتى تغدو المقامة في بعض الأحيان ضرباً من العبث اللفظي نتيجة ولع أصحابها بتزيين ما يقصّون بألوان البديع المختلفة من سجع وجناس وطباق وغيرها من المحسنات والصور التي خرجت بالخطاب المقامي إلى الغموض نتيجة عناية الكاتب بالمبنى على حساب المعنى.

2.1- العنوان: العنوان من العتبات الافتتاحية المهمة التي يركّز عليها الأدباء، ولا نبالغ

إن قلنا بأنه سيد العتبات، والحُكم على الأديب ونصه دائماً ما يتأسس انطلاقاً من هذه العتبة الاستهلاكية التي تأخذ اهتماماً وعناية خاصة من صاحب النص، ويمكن تعريفه بأنه: "تلك العلامة اللغوية التي تتقدم النص وتعلّوه، ويجد القارئ فيها ما يدعوه للقراءة والتأمل، وي طرح من خلالها على نفسه أسئلة تتعلق بما هو آت"³ أي أنّ العنوان يُعدّ مدخلاً ونقطة انطلاق

¹ ابن منظور، لسان العرب، تج: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ج 11، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص355.

² فكتور الكك، بديعات الزمان، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1971، ص848.

³ أحمد مداس، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ط2، 2009، ص40.

الكاتب والمتلقي على حدّ سواء، وهو واجهة العمل والجسر الذي يقود إلى المتن (النص المركزي)، وبعبارة أخرى هو الجزء الذي يؤسس معرفتنا بالكل (النص)، ويمكن القول إنه اختزال للمتن وضغط له، إذ يأتي -عادة- مُكثَّفًا؛ يتضمن مبنى قليلًا، ومعنى يفيض بكثير من الدلالات والمرامي الخفية، وكذا الظاهرة التي وجب أن لا يغفلها المتلقي؛ لأنّ فهم عتبة العنوان يقود لتأسيس معرفة صحيحة شاملة بالعمل الأدبي.

2- المقامة في الأدب العربي:

في القرن الرابع للهجرة ظهرت كتابة نثرية لها ميزات خاصة، كما أنها كُتبت بدوافع عدّة وقد برع في هذا الميدان عديد الأدباء على رأسهم "بديع الزمان الهمداني" الذي عدّت مقاماته نموذجًا مكتملًا درج المؤلفون على منواله واقتدوا به، ووجب التنويه أن الباحثين لم يتفقوا حول عديد القضايا المتعلقة بهذا النوع الأدبي؛ فقد تضاربت آراؤهم حول مبتدعه، كما اختلفوا حول دوافع كتابته؛ إذ يرى "عبد الملك مرتاض" أنّ هناك سبعة أسباب حَمَسَت ودعت المؤلفين لكتابة نصوص المقامة وهي: "الكدية، المقدرة اللغوية والتعليم، النقد الأدبي، النقد الاجتماعي، الوصف، الوعظ الدين، التكسب"¹ لكن البناء الشكلي وحتى موضوعات ودوافع المقامة لم تكن واحدة على مرّ العصور؛ فالأزمنة تختلف وشواغل الكُتّاب متباينة، ولا يمكن أن يبقى المؤلفون أسرى لموضوع واحد خاض فيه أب المقامات (الهمداني)، كما أنهم لم يلتزموا التزامًا صارمًا بالضوابط الشكلية التي وُجدت في المقامات الهمدانية، وهذا أمر طبيعي فكل جنس أو نوع أدبي لا يثبت على موضوع وقالب ومبنى واحد؛ إذ يعتمد الكاتب دائمًا إلى تبني موضوعات راهنة، كما يلجأ إلى تكييف القالب الهيكلي أو البناء الشكلي حتى يتناسب مع ما يريده هو، لكنهم لم يتنكروا تنكرا كليًا للنموذج الأول الذي اكتمل على يد المؤسس الفعلي لهذا الضرب من الكتابة، بل حافظوا على جوهره مع بعض الإضافات.

معلوم أنّ كل الكتابات الأدبية التي تظهر في المشرق ما تلبث أن تنتقل إلى بقية الأمصار والأقطار العربية وهذا ما حدث مع المقامة؛ فقد أخذ الأندلسيون والمغاربة في هذا المجال وساروا في هذا المضمار متأثرين بما كتب "بديع الزمان الهمداني" و"الحريري" وأعلام نصوص

¹ يُنظر: عبد الملك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1988،

المقامة في البلاد المشرقية بحكم المواقفة بين الأدباء وكذا بنية مجازة المركز، إذ شاعت قديما فكرة مركزية المشرق وهامشية بلاد المغرب، وانطلاقا من هذه الفكرة التي آمن بها البعض وراهنوا على تسويقها في الساحة الأدبية والثقافية، سعى أدباء المغرب إلى إثبات ذواتهم فكتبوا هم أيضا وبرعوا في فن المقامة، لكن الملاحظ أنّ شخصية كاتب المقامة في الغرب تَبَدَّت في نصوصهم إذ لم يكتفوا بتقليد النموذج المشرقي، بل تركوا لمستهم الخاصة فتفردوا في بعض الجوانب مع محافظتهم على الخطوط العريضة التي وضعها "بديع الزمان الهمذاني" لهذه الكتابة التي تخرج أو تنفتح كذلك على الشعر، فنجد تآزرا بين المنظوم والمنثور في عديد المقامات.

3. العنوان في المقامة العربية:

لفترة طويلة من الزمن لم يحفل الأدباء العرب بالعنوان، ولم يولوه عناية كافية، فقد استنفدوا كل جهودهم تقريبا في المتن، لذلك وصلتنا عديد النصوص الشعرية وكذا النثرية عارية من العنوان، وبترء إن جاز القول بعد أن توهموا أنّ العنوان عتبة أو مكون هامشي غير مهم، من هنا وُجِدَت نصوص كثيرة مبعثرة لا يجمع شتاتها عنوان، وحتى وإن وُجد هذا الأخير لا يُلْتَفَت إليه ويطاله التهميش النقدي؛ فعدد النقاد لم يُخضعوه لرقيب نقدي، بل يتجاوزونه ويحاولون مقارنة النص الأدبي بعيدا عن أي عتبة خارجية، "فبالعودة إلى النقد العربي التقليدي نجد أنّ العنوان كان موضوعا منسيا في انشغالات الناقد العربي التقليدي"¹ لكن في مرحلة التأليف النقدي المنهجي عند العرب تغيّرت النظرة إلى العمل الأدبي وإلى بعض العتبات المحيطة به.

في القرن الرابع للهجرة كان الأدب العربي بجنسيه (الشعر، والنثر) يعيش أزهى فتراته؛ فقد ظهر كبار الأدباء وكانت الظروف مواتية لهم ليسيروا بكتاباتهم وينمازوا عن أدباء العصور السابقة، فالعصر عصر تدوين وترجمة وتأليف، كما أنّ الكُتّاب تشربوا ثقافات عدّة وكل هذا ساهم في بلورة فهم جديد حيال النص الأدبي، وأبرز ما يلفت الانتباه في هذا القرن ظهور كتابة جديدة غير مألوفة بالنسبة للمتلقي الذي وجد نفسه حيال بدعة نثرية (بالمعنى

¹ عبد المالك أشهبون، العنوان في الرواية العربية، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1،

الايجابي طبعا)، هذه الكتابة اعتمد فيها أصحابها تقنيات عدّة عكست وعيهم بأسرار الكتابة الأدبية النثرية، وأول ما يشدّ الانتباه في النصّ المقامي سواء المشرقي أو المغربي العنونة؛ إذ اتخذ كُتّاب المقامة عناوين لما يكتبون بعد أن أدركوا مدى أهمية هذه العتبة باعتبارها علامة تستشرف بعض غيبات النصّ الأدبي... وبهذا لقي هذا المكون النصي انشغالا واهتماما كبيرين بعدما كان من القضايا التي لا يُفكر فيها، ولا يُعار لها الاهتمام الكافي والمناسب، رغم الأهمية التي يكتسبها هذا المكوّن في تشكّل النصوص¹ من هنا غدا العنوان مكونا أساسيا، وأحد نواة النصّ المقامي، كما أنه خطاب افتتاحي، وعلامة عبور هامة إلى أفضية النصّ، وهو موجه إلى قارئ محتمل، وأصحاب المقامة سعوا لإرضائه (أي المتلقي)، وبعبارة أدق لاستدراجه إذ هو ليس مجرد إضافة، بل هو عتبة خادمة للنصّ المركزي ومن دونه لن تتحقّق قراءة فعّالة وشمولية للنصّ، وصدق "جيرار جينيت" حين قال: "احذروا النصوص المحاذية" وهو يقصد العتبات النصية بقوله.

إنّ العناوين في المقامة العربية بصفة عامة، والمقامة الجزائرية بصفة خاصة تتميز بظواهر ثلاث:

التنميق اللفظي: معلوم أنّ المقامة لعبة لغوية، إذ لا يخفى على أحد أنّ هناك من كتب المقامة بهدف إظهار مقدّراته اللغوية الأدبية؛ لذلك مالت عناوينهم إلى التنميق والبهرجة اللغوية، "فالمقامة منذ ابتكرها بديع الزمان تنحو نحو بلاغة اللفظ وحب اللغة لذاتها، كما أنّ الجوهر فيها ليس أساسا، وإنما الأساس العرض الخارجي والحيلة اللفظية"² والزخرف اللفظي يظهر في العنوان وفي المتن أيضا، من هنا أتى العنوان كصورة مصغرة للمتن، والمتن صورة مكبرة للعنوان، وكل منهما يكتظّ بألوان البديع المختلفة، "ففن البديع استحوذ استحوذا تاما على أسلوب فن المقامة"³ وعلى عتبة العنوان كما هي الحال في مقامة أحمد بن ساسي البوني (أعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار)

¹ بولفاعة وافية، شعرية العنونة في شعر عمار بن زايد دراسة لنماذج شعرية مختارة، مجلة المعيار، مع14، ع1، 2023، ص296 – 297.

² شوقي ضيف، المقامة، دار المعارف، مصر، ط3، د.ت، ص09.

³ عبد الملك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1988، ص415.

التكثيف: المقامة قصة موجزة فيها الكثير من الحذف؛ إذ يسكت صاحب المقامة عن تفاصيل عدّة، وهذا ما تجلّى أيضا في العنوان، فعناوين المقامات موجزة مُختصرة لكنها مُكثّفة تستوجب تفعيل الطاقة التأويلية للمتلقّي، "فما من عتبة إلا وتحمل دلالة ما أو تضطلع بوظيفة من الوظائف ولا يمكن لها أن تكون بريئة في وضعها وموقعها وتركيبها، والعنوان خطاب خاضع، مساعد وجاهز لخدمة شيء آخر، سواء أكان وراء هذا الوجود النصي استثمار جمالي أو أيديولوجي"¹ بمعنى أنّ المبدع ينتقي العنوان بدقة كونه يؤدي وظيفة ما.

الزمكانية: المقامة قصة أو شبه قصة، هذه الأخيرة تتألف من بنية سردية (شخصيات، زمان، مكان ...) وكتابت المقامة اتخذت من مكان قصته أو زمن حدوثها عنوانا لمقامته: المقامة البغدادية، المقامة الهركلية ... أي أنّ كُتّاب النص المقامي أوجدوا وخلقوا ألحمةً بين المتن والعنوان.

4. العنوان في المقامة الجزائرية -مقاربة سيميائية في نماذج مختارة-

يرتكز المنهج السيميائي في تعامله مع النص الأدبي على ما يسمى بالعلامة اللغوية التي تؤدي دورا ما أو تُحيل على وإلى شيء ما، "وقد اهتمت السيميائية بدراسة كل شيء يُحيط بالنص كالعنوان والإهداء وكل ما يُطلق عليه النص الموازي، من أجل نقل مركز التلقي لدى القارئ من النص نفسه إلى النص الموازي"² وانطلاقا من عناية السيميائية بالمصاحبات والمكملات (العتبات النصية) ارتأينا مقارنة مجموعة من عناوين المقامات التي كتبها بعض الكُتّاب الجزائريين باعتماد المنهج السيميائي، خاصة أنّ السيميائية منهج يمنح للمتلقّي إمكانية إنتاج دلالة خاصة بالاستناد على العلامات اللغوية بمعنى أنّ القارئ يغدو مستقبلا فعلا لا مجرد قارئ سلبي.

وأول ما يلفت الانتباه في المقامة الجزائرية أنها أتت داخل متن أدبي آخر متاخم لها، فمعلوم أنّ الأجناس والأنواع الأدبية تتماس وتتداخل، ونادرا ما نجدها صافية صفاء كلياً، "فابن حمادوش الجزائري" أحد أعلام المقامة في بلادنا استطاع المزاجية بين الأدب الرحلي

¹ يُنظر: عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2009، ص43.

² يُنظر: محمد شعبان، سيميائية العتبات النصية في أعمال شعراء المهجر وأبولو، مج32، ع59، 2023،

والمقامة، وبعبارة أدق جمع بينهما في مدونة واحدة، ففي القرن 18 للميلاد قام برحلة إلى المغرب الأقصى ودوّن تفاصيل ظعنه وارتحاله، لكنّه ضمّن رحلته ثلاث مقامات، مستفيدا من خصوصية أدب الرحلة، هذا الأخير يُعدّ أدبا هجينا يمتلك قابلية التحوار مع عديد الأجناس والأنواع الأدبية إذ غالبا ما تأتي الرحلة جامعة لعديد الأنواع والأجناس (نثر، شعر، قصة، سيرة، ترجمة) فالتداخل الأجناسي ظاهرة بارزة في الأدب الرحلي.

المقامة الأولى التي أوردها "ابن حمادوش الجزائري" في رحلته عنونها بالمقامة الهركلية يقول فيها: "الحمد لله حدى (حدا) بي حادي الرحلة، فنزلت بها في خان، كأنه من أبيات النيران، أو كنائس الرهبان، بل لا شك أنه من أبيات العصيان، فلذلك لا يسر به ناظر، ولا ينشرح له خاطر..."¹ اشتغل ابن حمادوش على عنوانه بدقة إذ نجد علامتين؛ الأولى (المقامة) ويمكن القول إنها علامة سيميائية تعينية أي الإعلان عن المحتوى بمعنى أنّ العنوان أدى وظيفة التجنيس وهي " التي تكشف عن نمط النص أو جنسه أو نوعه: رسائل، أو مقامات ، أو مذكرات "² والمصطلح الأول فيه إشارة إلى النوع الأدبي الذي هو بصدد الكتابة فيه أي المقامة، وقد أحسن انتقاء هذه العلامة، ولم تكن مجرد اختيار عشوائي، وكأنه أراد الفصل بين هذا النص ونصه السابق، خاصة أنّ مقامته أتت داخل متن رحلي لكنه بمجرد توظيفه لمصطلح المقامة أقصى الخطاب الرحلي، فالكاتب استدعى علامة لغوية واحدة عبرت به من نوع أدبي إلى نوع آخر.

أما العلامة اللغوية الثانية في مقامة "ابن حمادوش" تُحيل إلى الحيز المكاني الذي جرت فيه القصة التي بنى عليها مقامته، فهركلة اسم موضع -كما يؤكد "أبو القاسم سعد الله" ذلك- وهو بذلك (كاتب المقامة) سار على طريقة "بديع الزمان الهمذاني" في عنوانه مقامته، إذ بنية المكان شغلت بال أصحاب النص المقامي، وهم عادة يقصّون حادثة حدثت لهم في موضع أو مدينة ما ، لكنهم يُحجمون عن ذكر المدينة في المتن، بل يكتفون بذكرها في العنوان فقط، بمعنى أنّ العنوان مطابق للمكان في مقامة "ابن حمادوش"، وهذا ما يجعل العنوان عتبة مركزية تستوجب الالتفات إليها نقديا ومقاربتها سيميائيا، فكاتب المقامة يتحدث عن ظاهرة

¹ ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د.ط، 1983، ص 78 – 79.

² بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ط1، 2001، ص51.

أو حادثة في مدينة ما، لكنه يُغيّب الموضوع (المكان) في المتن لذلك يغدو الخطاب المقامي غامضاً غير مفهوم من دون عنوانه، أي أنّ الكاتب أوجد علاقة جدلية بين العنوان والنص، فالأول يقود إلى الثاني والعكس، بمعنى أنّ العنوان عند "ابن حمادوش" أصبح عتبة مُفكراً فيها ومنتقاة بدقة، ولأنّ المقامة تكتنز بالتهريبات النسقية، فالمتلقي بحاجة ماسة لتفكيك العنوان، هذا الأخير قد يحمل اسم مدينة -كما في المقامة التي ذكرنا- وكاتب المقامة يُضَمّن نصه نقدا اجتماعياً أو سياسياً أو دينياً، لكن يبقى نصه بحاجة إلى عنوانه ليُبدل على الظاهرة التي يُثيرها الكاتب أي أنّ النص يبقى مُهما؛ فإذا كان "ابن حمادوش الجزائري" مثلاً تحدث عن البطالة والسرقة والتسول، وأراد أن يُصور وضعاً اجتماعياً مُعينا فكيف يتحقق الفهم للمتلقي إذا كان هذا الأخير يجهل الحيز المكاني الذي تشيع فيه هذه الظواهر السلبية؟ لكن معرفة القارئ بأن "ابن حمادوش" يتحدث عن هركلة من شأنه أن يُسهّم في تلقي نصه تلقياً سليماً، كون المقامة "شبكة شديدة التعقيد ينبغي على الصياد (المتلقي) أن يُحركها بأقصى ما يمكن من الحذر، وإلا فإنه يُجازف بأن يعلق فيها ويحتبس"¹ وحسن تلقي النص المقامي يبدأ من عتبه الأولى (العنوان).

أما المقامة الثانية فعنونها بالمقامة الحالية، ومطلعها: "الحمد لله محول الأحوال ومرخي البال، ومقلب الأمور في الدهور، والصلاة والسلام على خير الأنام، المبشر بالفرج بعد الشدة، والمنذر بالعناء بعد اللذة، وبعد، لما أن جرى القضاء المحتوم، والأمر الملزوم، بأن خفّ الریش، وأكل الجويش، ومضض العيش"² وظّف "ابن حمادوش الجزائري" عنواناً يحمل أبعاداً إشارية سيميائية، وعمد إلى تكثيف عنوانه، فهذا الأخير أتى مختصراً مكثفاً، والعنوان كلما مال إلى الاختصار كلما احتاج لجهد قرائي كبير، وضغط العنوان يُتيح إمكانية أكبر للمساءلة السيميائية، خاصة أنّ كُتّاب المقامة وظّفوا في عناوينهم مصطلحات وتراكيب غير مألوفة، ما جعل المقامة في كليتها خطاباً غامضاً، فالمؤلف لا يُوظّف لغة تقريرية نقبض على معانيها من الوهلة الأولى، بل يعتمد لغة جمالية مهمة تحتل عدّة قراءات، وعنوان مقامة "ابن حمادوش" يتألف من مصطلحين؛ المقامة الحالية والشق الثاني من العنوان قد يحمل

¹ عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر،

الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001، ص191.

² ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص164.

معنى غير تلك المعاني المتداولة المعروفة، إذ كُتِبَ المقامة يعمدون دائما إلى خرق المتعارف عليه واخلخله القار، كما أنهم يجنحون إلى التلميح بدل التصريح؛ أي أنهم حرصوا على اختيار عناوين تتناسب مع الجوهر والمُتن، فإذا كان المُتن يميل إلى الغموض، فالعنوان كذلك، وإذا كان "ابن حمادوش" يُوظف التراكيب القصار كتقنية في خطابه المقامي، فتقنية العنونة أيضا سارت في الاتجاه نفسه، والكاتب اشتغل على عناوينه وشحنها بحمولة دلالية؛ فالحالية مصطلح قد يُشير إلى مدينة أو مكان ما، وفي المقابل قد يكون وظف المصطلح للدلالة عن حالته النفسية والاجتماعية، وما يمكن قوله إنَّ العنوان تغيب فيه القصدية، لأنَّ الغموض محفز للمتلقى الذي لا يلتفت إلى الواضح البين، بل ينجذب أكثر للعناوين التي تُثيره، من هنا كاتب المقامة "أدرك حاجته إلى إخفاء الفكرة أحيانا، وإظهارها ملفعة بضبابية التأويل"¹ كما في عنوان هذه المقامة (المقامة الحالية)، فهذا الأخير علامة لغوية فيها تشويش للمتلقى، إذ تتجلى في النص الموازي الأول (العنوان) جمالية الغموض وسحر المفاجأة، لذلك وجب ترجيح احتمالية أنَّ هذا العنوان عتبة وعلامة لغوية تموهية، فمن جهة يمكن اعتباره عتبة مقترنة بموضوع المقامة إذ وظفه لإيجاد علاقة جدلية بين المتن الأصغر وهو العنوان، والنص المركزي أي النص، ومن جهة أخرى يمكن اعتبار العنوان علامة لغوية مطابقة لبنية المكان في مقامة "ابن حمادوش"، وهذا الفهم ينطلق من رؤية تأويلية تُعدّ جوهر القراءة السيميائية.

أما رائد المقامات الثاني بالجزائر خلال العهد العثماني فهو "أحمد بن ساسي البوني" كتب مقامة عنونها بـ (إعلام الأخبار بغرائب الوقائع والأخبار)، نلاحظ أنَّ عتبة العنوان علامة لغوية تتجلى فيها الزخرفة اللفظية، إذ مال الكاتب إلى إضفاء ضرب من التنعيم اللفظي على عتبته الافتتاحية فأتى العنوان مسجوعا (الأخبار، الأخبار)، وهكذا عناوين "تفتح آفاقا متعددة للحوار النقدي، إنها بمثابة شكل من أشكال الضيافة المصحوب ببروتوكول خاص"² فهناك ظواهر لافتة في عنوان مقامة "أحمد البوني" تستلزم مقارنة سيميائية واضحة، إذ خرق المؤلف أفق توقع القارئ بعد أن وظف علامة لغوية مُحفزة، ونصه الموازي الأول وهو العنوان يكشف بأنه مجدّد؛ إذ لا توجد مطابقة كلية بين العنوان والنص، وهذه تقنية تُحسب له، فقد أشار إلى الأخبار وهم علماء وفقهاء اليهود، بينما تعالج المقامة موضوعا حساسا

¹ مسعد عبد العيد العطوي، الغموض العربي، مكتبة الملك فهد للنشر، تبوك، ط2، د.ت، ص.02.

² عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، ص.48.

مرتبطا بالمؤلف المثقف الذي طالاه التهميش والإقصاء من السلطة الحاكمة (السلطان باشا) بعد الوشاية التي طالته من علماء وفقهاء عصره، كما عزّج في نصه على واقع المثقفين البائس إذ جرّحهم في خطابه المركزي (متنه)، فذكر عيوبهم وعثراتهم، وكأنه أراد بهذا أن يُسقط صفات اليهود على علماء عصره، فالغدر والخيانة والدسائس كلها صفات أبصرها في علماء وفقهاء عصره (القرن 18)، وبما أنّ السلطة السياسية كانت ساخطة على "أحمد بن ساسي البوني" فأمر طبيعى أن يعتمد التلميح في عنوانه بدل التصريح المباشر، كما لمّح أيضا في عنوانه أنه بصدد توظيف العنصر الغرائبي في متنه، وهذا ما يظهر في قوله: "بغرائب الوقائع والأخبار" وهذه حيلة فنية وعلامة سيميائية منتقاة بدقة، فقد نظر البوني إلى سلوكيات العلماء ورجال العلم نظرة استغراب، ومعلوم أنّ المتلقي يميل إلى الغريب والعجيب كون هذا الغرائبي يُلبى حاجات القارئ، فالغريب في أبسط تعريف له: "هو شيء لا عهد لنا به أو شيء يقلّ حدوثه" وتوظيفه لمصطلح الغرائب في نصه الموازي يحمل دلالة واضحة أنّ المتن سيتضمن أخبارا وحكايات غير مألوفة بالنسبة للمتلقي، وهذا ما يبحث عنه القارئ في أدب المقامة، وهو أدب يطغى فيه الخيال بدل الواقعية المفرطة التي لا تُثير مشاعر الاستحسان والإعجاب.

وفيما يخص "محمد بن ميمون الجزائري" فهو رائد أدب المقامة في الجزائر دون منازع؛ إذ كتب ست عشرة مقامة وجمعها في مؤلف واحد هو: **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، يتجلّى في مطلع العنوان خطاب المدح، وهذا أمر بديهي فالمقامة ارتبطت بهذا الموضوع (المدح) منذ نشأتها الأولى؛ إذ كثيرا ما تضمنت ثناءً على شخصية أو جماعة، وبما أنّ العنوان الرئيس حوى مدحا، فإنّ المتلقي يستطيع من خلال قراءة سيميائية فعّالة أن يدرك أنّ المقامات التي تقع تحت هذا العنوان الرئيسي ستضمن هي الأخرى مدحا بشكل من الأشكال، أما العلامة اللغوية الأكثر حساسية في عنوان "محمد بن ميمون" فهي: **الدولة البكداشية**، وفيها إشارة إلى شخصية محورية في مقاماته، وهو يقصد الداوي "محمد بكداش" الذي حكم الجزائر في القرن 18 للميلاد أي إبان الحكم العثماني، والكتاب عاصر هذه الفترة، واتخذ من الداوي شخصية مركزية بنى عليها كل مقاماته، و"محمد بن بكداش" شخصية لكنها ليست شخصية من عالم الهامش والمهمشين، بل شخصية تُمثل المركز السياسي، فمعلوم أنّ شخصيات المقامة عادة ترتبط بفئات المهمشين والمتسولين والصعاليك، لكن الكاتب ربط عتبة العنوان بشخصية سياسية لامعة وهو حاكم الجزائر؛ أي أنّ العنوان فيه إشارة إلى موضوع المقامة، وإلى شخصية مركزية ذكرها في نصه الموازي

الأول (العنوان) وفي المتن؛ إذ العنوان تمحور حول بطل المقامات، وهو لم يذكره بشكل مباشر، وإنما أورد علامة لغوية وهي (الدولة البكداشية) تُحيل إلى الداوي "محمد بكداش"، لذلك فالمؤلف كاتب مقامات بلاطي إن صحَّ القول، وإذا ما أمعنا النظر نجد قرينة بين العلامة اللغوية الأولى والثانية في العنوان الرئيس الذي وضعه، فمطلع العنوان فيه تلميح إلى المدح، والعلامة اللغوية الثانية فيها إشارة إلى النظام الحاكم الذي عاش في كنفه "محمد بن ميمون الجزائري"، لكن ما يشدّ الانتباه أنّ عنوانه: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية فيه استدعاء لنوع أدبي آخر، وهو السيرة الغيرية، فمعلوم أنّ هذه الأخيرة تُؤرخ لشخصية ما، وهذا ما فعله كاتب المقامة إذ تتبع حياة وإنجازات الداوي "محمد بن بكداش"، والعنوان هو الخطاب الافتتاحي الأول الذي يثبت فيه الكاتب أنه بإزاء تقديم ما يشبه السيرة الغيرية في قالب مقامة، وحين نطلع على نصوص مقاماته نجد أنها تتماشى مع السيرة؛ إذ تتبع "محمد بن ميمون" حياة حاكم الجزائر آنذاك وتدرّجه في المناصب، كما أنه أضفى لمسة خاصة على نصوصه ولم يكتف بتقليد الأنموذج المشرقي، ونلاحظ أنه اشتغل على العنونة، وصاغ عناوين مقاماته وفق رؤية خاصة وسنكتفي بإيراد بعض منها:

المقامة الأولى عنونها بـ "في نبذة من أخلاقه المرضية ومما أشار به عليه بعض السادات الصوفية" العنوان عنده يميل إلى الطول، وهذه ظاهرة لافتة للانتباه في كل عناوين نصوصه، فالمؤلف كسر تلك الرتبة، أو ذلك التقليد الذي أصبح مألوفاً بالنسبة لكاتب المقامة، ومتوقفاً بالنسبة للمتلقي، إذ عادة ما يُختصر العنوان في تركيب بسيط مهم لا يُقدّم محصولاً معرفياً ودلالياً كافياً لقارئ المقامة، كما لا يبوب بالشيء الكثير، أما تطويل العنوان فهي من التقنيات التي وظّفها "ابن ميمون"، وكأنه أخضع النصّ المقامي لمرحلة تجريبية؛ إذ لم يكتف بتطويع المقامة لتحمل سيرة حاكم، بل خرق أيضاً مراسم العنونة التي تبناها أعلام المقامات في العصور الماضية (الهمداني، الحريري...)، من هنا تغيّرت وظيفة العنوان ومدلوله، إذ أصبح العنوان يُبنى عما سيلقاه القارئ في المقامة، كما أنه يحمل استفهامات تدفع إلى الحيرة والريبة، فهو يُفصح من جهة، ويُضمر من جهة أخرى، لذلك يمكن القول إنّ عناوينه زئبقية، وانطلاقاً من رؤية سيميائية نلاحظ أنّ العنوان السابق يحمل طابعاً دينياً وأدبياً، إذ اصطبغ عنوان "محمد بن ميمون" بزرعته وتوجهه الفكري والديني، وهذا متوقع، فالكاتب حين يكتب ينطلق من رؤية خاصة، كما أنه ينظر إلى الأشياء بمنظار خاص، من هنا تتسلل عقيدة وأيديولوجية المؤلف إلى كل ما يكتب، وهذا ما يظهر مع "محمد بن ميمون"، فقد وظّف

عنوانا يحمل طابعا دينيا؛ والعلامة اللغوية التي أوردها (السادات الصوفية) تثبت ما أشار إليه محقق مقاماته ؛ إذ ذكر أنّ ابن ميمون شخصية أدبية متصوفة، أي أنّه استطاع أن يربط بين تصوفه ومدحه للدائي محمد بن بكداش من خلال الجمع بينهما في علامة لغوية أو في عنوان واحد، بمعنى أنّ كل علامة لغوية يوظفها في العنوان تؤدي وظيفة ما، وتحتاج إلى إعمال الذهن لفهم قصيدة المؤلف.

أما الظاهرة الثانية في العنوان السابق وبقيّة عناوين مقامات "ابن ميمون الجزائري" فهي: التنميق اللفظي، أي أنه يوظف علامات لغوية تظهر فيها الصنعة اللفظية؛ فمعلوم أنّ العصر العثماني عصر ولع بالصنعة اللفظية، و"ابن ميمون" جاري أقرانه في ذلك، إذ الزخارف اللفظية بادية في العنوان، وثمة تنعيم وجرس موسيقي يقرع أسماع المتلقي (المحمية، المرضية)، (المرضية، الصوفية)، و"ابن ميمون" لا يحيد عن السجع والازدواج إلا نادرا في عناوينه وفي نصوصه أيضا، كما يُتوج أحيانا أسلوبه المعسول بالاقتراس من أي الذكر الحكيم والحديث الشريف، ويطعمه بأبيات شعرية تناسب الموضوع¹ أي أنه مزج بين المنظوم والمنثور، كما اصطبغت عناوينه بالمحسنات البديعية، وهذا من شأنه أن يحجب الدلالة أو يفتح الدلالة أكثر لذلك يحتاج المتلقي إلى قراءة العناوين قراءة سيميائية تتجاوز القيم الجمالية.

المقامة السادسة "في استفتاح الملك صباحا وما جرى لأهل الدولة غدوا ورواحا"، والمقامة السابعة "في اسمه وأهل مملكته ورسمه" صاغ "ابن ميمون الجزائري" عنواني المقامتين بالطريقة نفسها تقريبا، فكل منهما أتى مطولا مسجوعا، وهي عناوين فيها فجوات وفراغات نصيّة مُحفزة للقارئ، وتدفعه لولوج النص، وتقلب النظر فيه بُغية القبض على بعض مقاصد النص، والعناوين السابقة التي وظّفها فيها غموض، وهذا الأخير يُتيح لنا إمكانية تقديم قراءة سيميائية خاصةً أننا نبحث عن القصيدة الخفية للكاتب، وفي عنواني المقامتين السابقتين نلاحظ أنّ "ابن ميمون" يقدّم معرفة مشوهة في عتبة العنوان، أو يُورد معرفة جزئية، هذه الجزئية تستدعي دراسة المتن ليتحقق الفهم، لأن المؤلف في عناوينه لا يذكر شخصية الدائي "محمد بكداش" بل يُلمح إلى شخصية محورية فقط، ويظهر من خلال

¹ يُنظر: محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح:

محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص84 – 85.

علاماته الإشارية أنه بصدد مدحه وتمجيده، وهذا ما يُثبتهُ المتن إذ ركّز في مقامته على شخصية مركزية سياسية.

الخاتمة:

خلصنا في هذه الدراسة التي تناولنا فيها العنوان في المقامة الجزائرية من منظور سيميائي إلى جملة من النتائج نجملها في النقاط الآتية:

- العنوان عتبة نصبة مركزية راهن عليها كُتّاب نصوص المقامة، وهي تحمل دلالة سيمائية متوالية.
- ركّز الكُتّاب في الجزائر على عناوين مقاماتهم إذ اعتمدوا تقنيات عدّة في صياغتها، وجعلوا منها عتبة مفصلية خادمة للمتن.
- التكثيف سمة بارزة في عناوين مقامات "ابن حمادوش الجزائري" إذ اعتمد نصوصا موازية ذات حمولة دلالية مع ميله إلى الإيجاز، وقد ربط بين عتبة العنوان وسيمياء المكان في المقامة الهركلية.
- المقامة عند "ابن حمادوش الجزائري" قصة أو شبه قصة تتألف من بنية سردية، ومن خلال دراسة سيميائية لبعض عناوينه توصلنا إلى أنّ المؤلف ربط بين زمكانية المقامة وعنوانها؛ أي أنه خلق لُحمة بين الخطاب المركزي (المتن)، والخطاب الموازي (العنوان) كما في المقامة الهركلية والمقامة الحالية.
- "محمد بن ميمون الجزائري" صاغ عناوين -مطولة نوعا ما- تُقدم معرفة مبتورة يجد المتلقي تكملتها في المتن، وقد أجاد بذلك في صياغة عناوينه التي تضمنت علامات إشارية تحيل إلى موضوع المقامة (المدح)، كما وظف مصطلحات -في العناوين- تشير إلى الشخصية المركزية (الداي محمد بكداش) التي بنى عليها كل مقاماته.
- الزخرف اللفظي في عناوين المقامات ظاهرة مشتركة بين كُتّاب المقامة في الجزائر (محمد بن ميمون الجزائري، أحمد بن ساسي البوني) إذ صاغوا عناوينهم بلغة جمالية أدبية فنية بعيدا عن اللغة التقريرية الجافة الخالية من الشعرية/الشاعرية، وهذا ما جعلها قابلة للدراسة السيميائية.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د.ط، 1983.
- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

المراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، تح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العرب، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ج11.
- أحمد مداس، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ط2، 2009.
- شوقي ضيف، المقامة، دار المعارف، مصر، ط3، د.ت.
- عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001.
- عبد المالك أشهبون، العنوان في الرواية العربية، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2011.
- عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2009.
- عبد الملك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1988.
- فكتور الكك، بديعات الزمان، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1971.

- مسعد عبد العيد العطوي، الغموض العربي، مكتبة الملك فهد للنشر، تبوك، ط2، د.ت.

المقالات:

- بولفعة وافية، شعرية العنونة في شعر عمار بن زايد دراسة لنماذج شعرية مختارة، مجلة المعيار، مج14، ع1، 2023.

